تمهيد

(أ) لماذا لم تحقق دراسة تاريخ المسيحية التقدم المرجو لها – أسباب خارجية وعلل ذاتية – النقص فى مصادر التحقيق والخطأ القديم فى عرض المسائل – الفوضى التى جلبها أهل الجدل والمتعصبون – نظريات حديثة .

(ب) صورة عامة للمسيحية من وجهة نظر المؤرخ .

obeikandi.com

(ا)

نستطيع اليوم أن نسجل الدراسات النقدية لأصول المسيحية ولتطور الكنيسة فى سجل العلوم التاريخية . ولكن هذه الدراسات لم تحرز من التقدم ما قد يخيل إلينا أنها أحرزته إن اكتفينا بإحصاء الكتب التى ألفت والتى يزداد عددها يوماً بعد يوم . وهى كذلك لم تصل فى بعض نتائج تحقيقاتها إلى تلك المرتبة من النجاح والوثوق ، التى ارتفعت إليها بعض العلوم التاريخية الأخرى . وكان هذا سبباً من الأسباب التى مازالت تدفع بالكثير من المثقفين وبجمهور القراء أو المستمعين ، إلى مواجهتها بقدر موفور من الريب ، بل تدفعهم إلى ما هو أخطر من ذلك ، إلى اللا مبالاة .

وإذا كان هذا الموقف – موقف الريب أو اللا مبالاة – عديم الأهمية أو يكاد فى البلاد البروتستانتيّة الغربية ، الجرمانية الثقافة ، فإنه فى البلاد ذات التقاليد الكاثوليكية والروح اللاتينى ، يشكل عقبة كئودًا صمّاء ، يعسر التغلب عليها ، ويتلاشى أمامها كالهباء الكثير من الجهد والوقت .

ولكننا برغم ذلك نستطيع أن نؤكد أن علم تاريخ المسيحية ليس مسئولا وحده عن تأخره ، وأنه بذل جهداً كبيرًا ليلحق بركب التطور ، وأنه اليوم قد وصل إلى نتائج هامة فى سائر المجالات ، وإلى براهين أصيلة فى المواضيع الأساسية .

ولقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى – حتى منتصف القرن التاسع عشر – محرمًا تحريمًا باتًّا على العلماء المنزهين عن الغرض ، أى على هؤلاء الذين

لا يعنيهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين ، بل يبغونها خالصة لوجهها . وكان الرأى العام يؤمن بأن دراسة تاريخ المسيحية إنما هى الساحة التى لا يجول فيها إلا رجال الكنيسة وأهل اللاهوت . وكان يؤمن بأنها لازمة من لوازم الدفاع عن المسيحية ، أو – فى تعبير أكثر دقة – صورة من صور هذا الدفاع ، ولم يخرج الرأى العام فى إيمانه هذا عن جادة الصواب ، فتاريخ المسيحية لم يكن سوى هذا أو ذاك [1] . وقد خبر الناس ، منذ عصر الإصلاح الدينى ، أساليب فقهاء الجدل من البروتستانت أو الكاثوليك : يغترفون اغترافاً من موارد النصوص القديمة التى لا تنفد ، والتى يجد فيها كل فريق ما يروقه من الأدلة والبراهين .

وفى القرن الثامن عشر نرى أعداء الكنيسة الكاثوليكية ، من رجال السياسة ومن الفلاسفة ، الذين يحكمون على عقائدها بالتهافت ، يتأسون بخطى أهل الجدل البروتستانتى فى نقدها ، وينهجون مناهجهم الجدلية أحياناً ، ولكنهم فى نقدهم – فى كلتا الحالتين – لم يتنزهوا عن الغرض ، ولم تتميز كتب أولئك عن رسائل هؤلاء إلا فى المزاج والأهداف .

وخلاصة القول أن المفكر المنصف فى بداية القرن التاسع عشر لم يكن يرى ، فى غالب الأمر بين الباحثين فى تاريخ المسيحية إلا شادياً بالكنيسة المسيحية ، مثنياً عليها ، أو ساعيًا لهدمها ؛ ولم يكن له ، فى غالب الأمر أيضاً ،

---

(١) مهدت دراسات الفحول من بحاثة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال توماسان وتيومون ومابيون وروينار وريشار سيمون – لكتابة تاريخ المسيحية الصحيح ، إذ فرضت مبادئ للبحث وحققت أمثلة معينة من المسائل المختلف عليها . ولكنها فى حد ذاتها لا تكون تاريخاً كاملا صحيحاً للمسيحية . (المؤلف)

سوى أن يحكم على دراسة تاريخ المسيحية بأنها لا تفيد إلا فى تحقيق غرض من هذين . ومن تلك الفكرة نشأت مواقف دينية ثلاثة اتسمت جميعاً بروح الحذر الشديد تجاه هذه الدراسات ، وإن اختلفت باختلاف العقائد السابقة لكل فريق :

١ – فريق يمثل الجهلاء والبسطاء ، ويبقى تحت التأثير الأول للتربية المسيحية التى قبلها ، أو اضطر إليها بادئ ذى بدء ، لا يجادل فيها ولا يشغل فكره بها ، خاضعًا فى سذاجة ساذجة لما افترض من محرمات ، متجنباً تلك الأحداث التى رأى أن تعاليم الكنيسة تغنى عنها وتنهى عن قراءتها ، مؤمناً بأن الإقدام عليها رجس من عمل الشيطان يؤدى بالنفس إلى التهلكة .

٢ – وفريق اتجه إلى الشك ، لطبع فى النفس ، أو اتجه إلى الشك حيث دفعه إليه منطق سطحى متهافت ، فجدّد قول شيشرون من : أن الدين حاجة لازمة للشعوب ، تقمع جماح الشهوات ، وتضمن حياة الأخلاق ، وأن المساس بأسس الكنيسة إنما هو مساس بأسس المجتمع القويم ، وراح يعلن هذه الفكرة كمبدأ فرض لا جدال فيه .

٣ – وفريق ثالث أخير من أصحاب الفكر الكسلان ، أو المتعلق بتبسيط الأمور ، ينزعون إلى تصوّر الأديان جميعًا فى صورة تنظيم متشعب الأطراف للدجل والاستغلال ، يديره دهاة الكنائس من القسس . وهؤلاء لا يرون فى المسيحية شيئاً يستحق أكثر من الهزء والسخرية .

لمَ لا نعترف بالواقع ؟ . . إن جمهور الناس فى البلاد اللاتينية لا يزال يعلل بهذه النظريات أغراضه عن دراسة أصول المسيحية والكنيسة ، وجهله بمناهجها وبالمسائل التى تثيرها والنتائج التى تحققها . ولا يزال موقف الهيئات المشرفة على

التعليم يقوم حافزاً على سوء الظن بهذه الدراسات . ففى فرنسا – مثلا – لا نجد سوى جامعات ثلاث فيها كراسى لتدريس التاريخ المسيحى . ولا يغرنا كثرة المستمعين إلى الأساتذة المعينين لها ، فالطلاب المنتظمون أقلية قليلة . ولا يمكن أن يتطور الأمر إلا بتطور الأفكار السائدة فى التعليم الثانوى ، فشبابنا يصل إلى المرحلة الجامعية ولم ينبه تنبيهاً كافيًا إلى أهمية تلك المسائل التى وإن كانت تفرضها البرامج الدراسية ويحتمها الحياد العلمى فإن اتجاهات السلطات الرسمية والرغبات العامة لدى الأساتذة تؤدى إلى محاولة التستر عليها ، لا إلى بحثها .

والحق يقال : إن الواقع الذى تنطوى عليه دراسة تاريخ المسيحية مسئول هو الآخر عن تأخرها . فهى لا تنتظم إلا بالتغلب على عقبات كثيرة تقتضى بذل جهود مضنية من شأنها أن تدفع بالكثيرين إلى اليأس ، وهى – فضلا عن ذلك – لا تغرى المبتدئين بمظهر شائق خلاب ، بل إن عبوس أساليبها ، وتردّدها وشكوكها فى مواضيع كثيرة ، ثم حذرها الشديد من البراهين والنتائج ، كل ذلك يدفع إلى تجنبها ، ويبعد عنها هؤلاء الذين تبهرهم الأحكام الوضعية للعلوم المادية ، وعلى رسلهم أولئك الذين لا يصبرون على الجد وعمق البحث .

وأول الصعاب التى تعترضها نجدها فى النصوص نفسها التى تمتاز من سائر النصوص الأخرى بضعف السند وبالاضطراب وعسر التحقيق . وأقدم هذه النصوص وأهمها – لأنها تتناول حياة المسيح والزمن الأول للعقيدة – هى تلك التى احتواها « العهد الجديد » ، والتى استلزمت ، قبل إمكان الاعتماد عليها ، تحقيقاً نقديًا دقيقاً مطولا لم يوشك أن ينتهى . ولم يكن فى المقدور ، لفترة طويلة من الزمن ، أن نستخرج العناصر والأسانيد إلا منها ، بحيث اضطر المفسرون –

من أجل تفهمها – إلى ترتيب المعانى وتهيئة الحواشى والتعليقات ، ولجأوا – حينما أرادوا التسامى بالفكر فوق النصوص – إلى النظريات والفروض . ويا لها من ضرورة مؤسفة ما زال هؤلاء المفسرون يخضعون لامتحانها فى الكثير من الظروف ، بل نرى فئة كبيرة منهم تقبلها راضية قارة العين ! . . . وقد يحدث أحياناً ، والتحقيق النقدى فى طريقه إلى الإثمار ، أن تكشف وثائق قاطعة فى المعانى المختلف عليها ، أو تظهر نظريات وآراء جديدة لها وجاهتها ، فيعود الباحث من حيث بدأ ، مقيماً عمله النقدى على أسس مختلفة . فلا نستطيع أن نقول إن العرض النظرى العام للمشكلات الكثيرة الخاصة بالأناجيل الثلاثة الأولى ، قد تغيرت اتجاهاته منذ خمسة عشر عاماً على التقريب . وتجددت مشكلة القديس بولس . والإنجيل الرابع نفسه الذى ظن أن مشكلته حلّت نهائيًّا ، قد تغيرت وجهات النظر المتعلقة به . إن هذا التردد ، وهذا التخبط النقدى الذى يسهل أن نأتى منه بأمثلة لا حصر لها ، ثم هذا التطور المستمر لوجهات النظر والمذاهب ، ليس له من مرجع سوى علة واحدة ، وهى أننا لا يمكن أن نخلص من الوثائق وحدها إلى تاريخ متكامل منسجم لأصول المسيحية . فمن هذه الوثائق لم يتبق لنا إلا فتات يكثر الشك فى البناء المؤسس عليه .

وإن خرجنا من الأجيال الأولى للإيمان ، فإننا نجد أنفسنا أمام عهد قد أظلم الكثير من جوانبه : ذلك هو الذى يشمل القرون الثانى والثالث والرابع للمسيحية ، والذى تكونت فيه العقيدة الأرثوذكسية ، واستقرت النظم الكنسية ، وانتظمت الطقوس الدينية . إن النصوص التى تتعلق به تبعد فى غالب الأمر عن الحياد والموضوعية ، وهى على أى حال ليست من الكثرة بحيث

تسمح بالمقارنة والمقابلة إلا فيما ندر من المسائل.

وفى القرن الرابع، وهو عصر انتصار الكنيسة، كتب الكثير عنها أو ضدها، كتبه أعداؤها من المشركين أو من أنصار الفرق المختلفة. ولكن أغلب هذه التآليف قد اندثر وضاع، ولم يبق منها سوى النذر اليسير الذى لا يدل إلا على عظم الخدمات التى كان يمكن أن تؤديها لو حفظت لنا.

إن التاريخ المسيحى خلال القرون الثلاث التى تكونت فيها الكنيسة - إذا قورن بأى فرع من فروع التاريخ العام فى الفترة عينها - لا يحظى إلا بأدنى نصيب من الأسس المكتوبة الثابتة، فهو يقتصر فى غالب الأمر على دراسة مؤلفات أهل الجدل أو الأنصار المتعصبين معتمدًا على تصحيحها بروايات مشكوك فى أمرها، تريد أن تكون تاريخية، ولكنها فى الواقع قد حررت فى عهود تبعد كثيرًا عن الأحداث التى تتناولها، والتى لا يكاد الناس يفهمون تسلسلها.

وهو أيضاً إذا ما تحول إلى البحوث الدينية لا يجد سوى تلك الرسائل التى تعبر عن رأى الأقلية من الفقهاء لا عن روح العقيدة الحية لدى الطبقات المختلفة من المؤمنين البسطاء. ثم هو، عندما يريد أن يلجأ إلى الآثار، لا يجد من النصوص المنقوشة إلا ما غمضت معانيه وافتقرت دلائله إلى المزيد من الإثبات، وكأن أصحاب هذه النقوش قد تفننوا فى الغموض والإيجاز. يجب علينا أن نذكر كل هذه الحقائق دائماً إن أردنا الإنصاف. بل إن ذكرها أمر محتم علينا، فتاريخ المسيحية القديمة لا يشكو فحسب من الصعوبات التى يعانيها مثله تاريخ العصور الرومانية والإغريقية، بل هو بالإضافة إليها كلها يتعثر أمام عقبات أخرى كثيرة خاصة به.

ومن ناحية أخرى يجب علينا الإقرار بأن فقهاء ومؤرخي المسيحية الأولى كثيراً ما أضاعوا الوقت والجهد فى بحث مسائل تفتقر أولا إلى العرض الصحيح. وبلغ منهم الخيال مبلغاً مثيرًا ، فظنوا مثلا أنه يمكنهم أن يستخلصوا من مجموعات النصوص المسيحية وحدها كل ما يحتاج إليه الكاتب لتصوير عصور الكنيسة الأولى تصويراً كاملا دقيقاً . والواقع الذى قد يدركه هؤلاء العلماء ، أو قد يسهون عنه ، هو أن تلك المحاولة للاعتماد على النصوص المسيحية وحدها نشأت من أصول عقائدية راسخة فى نفوسهم ، فهم لم يصلوا إلى حمل عقولهم على النظر إلى المسيحية باعتبارها إحدى الديانات الإنسانية ، بل أرادوا أن يحتفظوا لها بميزة أصيلة تفرق بينها وبين تلك الديانات . وتعليل إرادتهم هذه يعود بنا فى نواح كثيرة منه إلى الغرض الدينى للوحى .

والرأى المتفق عليه عامة هو أنه للوصول إلى فهم مبدأ المسيحية و « جوهرها » ، وإلى إدراك الأسباب التى نشأت منها ، لا يكفى استيعاب المراجع المسيحية والتحقيق المدقق فى التفكير الدينى والأخلاق الاجتماعى بين أرجاء العالم اليونانى الرومانى ، حيث انبثق الإيمان ونما وتطور ، بل إن سر نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى يجب الرجوع فى دراسة جوانب كثيرة منها إلى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وكذلك بلاد ما بين النهرين ، وكل هذه البيئة الشرقية التى ظهر فيها بادئ ذى بدء ثم وجد العناصر الأولى للحياة والانتشار . والدراسات الوافية التى تتم فى أيامنا هذه للنصوص المنقوشة وللوثائق التى يحملها إلينا الخزف أو أوراق البردى ، أصبحت تضيء جوانب كانت مجهولة من فقه « العهد الجديد » ، ومن أخلاق وتقاليد وعادات دينية اختصت بها تلك الشعوب التى كتب الكتاب (العهد الجديد) بواسطتها وكتب من أجلها .

وإن تقدم علوم الآثار الشرقية ليؤدى إلى النتيجة عينها .

ومن جانب آخر نرى المتعصبين وأهل الجدل لا ينفكون عن النضال . فالفريق الأول لم يكتف بأن يبذل قصارى جهده لكى يبث وينمى فى أذهان المستمعين إلى حججه – وهم جمع غفير – الإيمان بأن الباحثين الأحرار إنما هم أعداء الدين الذين يزداد خطرهم كلما ازداد ادعاؤهم الإخلاص وعدم التحزب – لم يكتف الفريق الأول بهذا ، بل أنشأ أهله ، فى المدارس التى يشرفون عليها وفى الكتب التى يصدرونها ، تاريخاً جديداً للمسيحية يقاومون به النقد الموجه إليها ، أى أنهم يتظاهرون بتبنى مناهج النقد العلمى دون تحفظ ، ولكنهم يطبقونها بوسائلهم الخاصة ، وبحيث تؤدى بهم دائماً – ويا للمعجزة ! – إلى نتائج لا تخرج عن فروض السنن الموروثة ، والغافل عن الحقيقة لا يميز فى الأمر شيئاً . وكذلك أهل الجدل المعادين للكنيسة يفسرون لمصلحتهم تحقيقات العلماء ، ولا سبيل إلى دفعهم عن ذلك . والجانب الخاسر فى كلتا الحالتين هو علم المسيحية نفسه ، الذى يفقد تقدير الجمهور ، بل يتعرض لفتن كثيرة خطيرة . ولا أدل على ذلك من تردد التعبير الشعبى القديم الذى يقول فى غير ما اهتمام : « كل هذا من شأن القسس وحدهم » ، أو : « من شأن أعداء القسس » . ولكن الحكيم لا يعجب لهذه الظاهرة أكثر مما يجب ، فهو يعلم أن القضاء على القشور الكاذبة لا سبيل إليه فى طرفة عين ، بل يستلزم الصبر والجهد .

إن ما سبق توضيحه ينطبق أكثر ما ينطبق على دراسة تاريخ المسيحية القديم . بيد أن تاريخ الكنيسة ، سواء فى العصر الوسيط أو فى الازمنة الحديثة والفترة الحاضرة ، يتعرض لعقبات لا تقل عن تلك خطورة ، وإن كانت تختلف

عنها شيئاً ما. فالنصوص، برغم وفرتها ووضوحها النسبي فى غالب الأمر، يتعذر جمعها لتشتيتها فى جهات لا حصر لها. والملاحظ أنه كلما احتوت هذه النصوص على مفهوم يهم الباحث، أو كلما وجد فيها العالم ما من شأنه أن يطور الرأى الذى يحاول تكوينه عن الكنيسة المعاصرة – سواء كان فى ذلك خيراً لها أو هدماً – ثارت الأهواء وسارعت الأحزاب تحاول استخدام هذه النصوص فى أغراضها، بحيث يتعذر أحياناً، بعد فترة قصيرة، أن نميز ونحدد مغزاها الحقيقى ومدى ما يحمله من مفاهيم. ويكفى لتوضيح هذا أن تتأمل قليلا فى الجدل الذى ثار حول الكثير من الموضوعات الهامة، التى نذكر منها على سبيل المثال وفى غير ما ترتيب: مسألة الرهبنة، محاكم التفتيش، أسباب الإصلاح الدينى، شخصية لوثر، روح وسلوك البابوات فى عصور مختلفة، التفسير النسبى للذنوب، جماعة اليسوعيين، قائمة الخطايا التى وضعها البابا بيوس التاسع، نظرية تنزيه البابا عن الخطأ، سياسة البابا بيوس العاشر...

إلا أن الزمن، مع مثابرة العلماء، كفيل بإزالة كل هذه الصعاب التى تعترض طريق التحقيق الصحيح. والحقيقة تتكشف شيئاً فشيئاً وتنجلى عنها عواصف الجدل، فتفرض نفسها على الناس جميعا..

ولكن دراسة تاريخ المسيحية لم تصل بعد إلى تلك المرحلة الخصبة التى تتسم بالروح العلمية البحتة، والتى لا يرجو فيها الباحث سوى الوصول إلى الحقائق وتحليلها التحليل الصحيح، ولا يهدف من ورائها إلى غرض سوى إضافة شىء جديد إلى علمه. وهناك ظاهرتان ما زالتا واضحتين فيما يختص بتلك الدراسات، وهما: البطء الشديد الذى تسير به فى تشييد الصرح العلمى لتاريخ المسيحية، ثم ذلك الروح العام من اللامبالاة أو الشك الذى نجده

تجاهها ، وبخاصة فى البلاد اللاتينية حيث يجهلها أكثر المثقفين جهلا مطبقاً يؤسف له .
فإذا ما بحثنا عن الأسباب المتآزرة فى خلق وتثبيت هاتين الظاهرتين ، وجدناها فى عوامل نستطيع أن نحصى منها الكثير : فن أفكار ثابتة موروثة تضع نطاقاً من التحريم حول الكثير من المسائل الدينية الهامة ؛ ومن أغراض ومصالح مختلفة ، سواء منها الدينية أو الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ، تقف حجر عثرة أمام رغبات الباحثين ؛ إلى خوف طبيعى من الانزلاق فى خضم الجدل السقيم ، ذلك الجدل الذى لا يمكن وصفه بالإخلاص ؛ ثم العجز والشك الذى يعترف به كل عالم يستحق هذا الاسم فى كثير من اليأس والمرارة ؛ والطمع العلمى الخطر ؛ والآراء السابقة لأوانها والقائمة على غير أسس سديدة ، مثل تلك التى تريد إثبات أن المسيح شخصية خيالية لم توجد بالمرة ، وتعارض النظريات ، وخصومات المفكرين ، وأخيراً ضرورة الجهد المضنى المستمر ، للوصول إلى إدراك وتتبع كل تلك الأبحاث المعقدة والبراهين الملتوية . .

وبرغم هذا فالقارئ المنصف إن أراد تحقيق الأمر ، لا يجد مناصاً من الاعتراف بأن جهود الأجيال المختلفة من الباحثين لم تذهب سدى ، وبأنهم – على أقل تقدير – استطاعوا أن يصلوا بكل المشاكل إلى بساط البحث العلمى الوضعى ، وبأن عدد المشاكل التى انتهوا فيها إلى حلول يسمح منذ الآن باستخلاص بعض النتائج العامة على أساس قوى سليم .

إنا لم نحط بكل شىء علماً ، وإننا لا نستطيع حتى ادعاء تفسير كل النقاط الجوهرية فى كثير من المسائل الخاصة بعلمنا . ولكنه أصبح فى الإمكان أن نحدد على الأقل الاتجاهات الأساسية فى تطور المسيحية ، وأن نبين المراحل الهامة من هذا التطور ، ونحلل العوامل الأصيلة فيه ، وأصبح فى إمكاننا أيضاً ، برغم

تعذر الاعتماد على الحقائق الإيجابية – أن ننفى – فى غير تردد – الكثير من الأساطير المتوارثة التى أجهدت المؤرخين زمنا طويلا معلنين بطلانها .

وليست هذه النتائج بالتى يستهان بها .

(ب)

إذا ما نظرنا فى غير تحزب إلى نشأة المسيحية وتطورها ، تاركين جانباً كل ما يتعلق بعلمى اللاهوت وما وراء الطبيعة ، بل منصرفين تماماً عن كل اتجاه إلى إدراك مفاهيم اللاهوت وما وراء الطبيعة ، وجدنا فى هذه النشأة وذلك التطور ظاهرة تاريخية جماعية يمكن تحليلها فيما يلى :

ظهر بإقليم الجليل ، خلال حكم الإمبراطور تيبريوس ، شخص يدعى بيسوع الناصرى ، وصار يتحدث ويعمل حديث وعمل الرسل اليهود ، معلناً قرب قيام مملكة الله ، وناصحًا الناس بالخير حتى يجدوا لأنفسهم إلى هذه المملكة سبيلا وفى هذه المملكة مكاناً . وقد جمع من حوله بعض الأنصار المخلصين . ولكن حادثاً عنيفاً أنهى حياته فجأة . غير أن عمله لم ينته بانتهائه ، بل سار أتباعه على هداه . ثم نجده بعد فترة وجيزة يوضع فى مكان الصدارة من مفهوم دين حقيقى كامل يمتد إلى العالم اليونانى والرومانى ، وينفصل فى الوقت نفسه عن الديانة اليهودية .

وتقوى دعائم هذا الدين الجديد شيئًا فشيئًا ، فيضم العدد العديد من الأتباع ، وينتهى إلى إقلاق بال القائمين بأمر الإمبراطورية الرومانية ، فيضطهدونه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقفوا فى سبيل انتشاره ، وينتظم الدين الجديد بعد ذلك فى كنيسة تفرض سلطانها على مرّ الزمن ، فتحتل

الإمبراطورية – خلال حكم قسطنطين – على التسامح فيما يختص بشئونها ، ثم تكسب الأباطرة إلى جانبها ، ثم تحملهم على محاربة الوثنية . ونراها فى نهاية القرن الرابع تسود – رسميًّا على الأقل – فى الدولة الرومانية كلها . وانتصرت العقيدة المسيحية بعد ذلك فى أوروبا وانتشرت فى الأرض جميعها .

وتلك النتائج التى حققها الدين الجديد ، تبدو لأول وهلة من الضخامة بمكان إذا قارناها بالحدود المتواضعة التى ظن أن يسوع أراد وضعها لرسالته . وهى أيضاً تبدو من الضخامة بحيث لا يستطيع المسيحيون تفسيرها إلا بردها إلى إرادة الله الذى يبغى خلاص أبناء آدم . وبما أن يسوع هو الله – فيما ترى العقائد المسيحية – فالنتيجة الحتمية لذلك : أنه أراد ، وأنه – برغم تضارب الاحداث الظاهرة – نظّم مضمون الدين الكامل خلال وجوده على هذه الأرض ، وأن الحياة المسيحية كلها ليست إلا نموًّا ضروريًّا للمبادئ التى وضعها . وهكذا ، فإن الكنيسة المسيحية ، وتأسيس وتطور المسيحية على مر الأجيال ، ينبعان خالصين من إرادته . أما السبب فى اتخاذه صورة البشر ، وتحمله للآلام ، ثم موته ، فهو – فيما ترى الكنيسة – إنشاء العقيدة الصحيحة .

هذا إذا اقتصرنا على الظاهر ولم نتعرض لسر الفداء .

ولن نتعرض هنا للحذر الذى لابد أن يعرب عنه كل مراقب غير متحيز إزاء أحداث هذا التاريخ ، هذا الحذر الذى يتلخص فى أن التردد والتغيير والإصلاحات – طفيفة كانت أم متعمقة إلى الأصول – ثم الجدل والتفرق والانقسامات ، كل تلك الظواهر التى اتسم بها تاريخ الكنيسة المسيحية ، لا تتفق كثيرًا مع النظرية القائلة بوجود خطة محددة وضعها المؤسس الأول منذ البداية ، وسار عليها التاريخ دون انحراف .

obeikandi.com

فالعرض العام الذى خططناه بشأن نشأة ونمو وانتصار المسيحية لم يحسب من حساب الأحداث إلا ظاهرها ، ولم يهدف إلى تحليل كيانها الذاتى وإلى تفسيرها حقيقة . إنه لم يبين منها سوى تسلسلها وترابطها من الناحية الزمنية . غير مبال كثيراً بالتسلسل والترابط المنطق .

وهناك مسائل كثيرة يجب وضعها على بساط البحث بشأن هذه الأحداث أو بشأن ترابطها وتسلسلها . وهى مسائل أساسية تتعلق بمبدأ وجوهر المسيحية وبمعنى وتدبير التطور المسيحى . وتلك المسائل هى المادة الحقيقية التى تغذى تاريخ الكنيسة القديمة .